الفصل الثاني

الافتتاح بالأمر

أولا : سورة الإخلاص :

عن أبي سعيد الخدري أن رجلا سمع رجلا يقرأ : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ـ وكأن الرجل يتقالّها ـ فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن) ـ وعنه أنه قال : قال النبي ﷺ لأصحابه أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ، فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله ﷺ فقال : (الله الواحد الصمد ثلث القرآن)[1] وروى مسلم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : (إن الله ـ جل وعز ـ جَزَّأَ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ جزءا من أجزاء القرآن)[2] .

لله أنت يا سيدي يا رسول الله النبي ﷺ يصنف أجناس المعاني في القرآن الكريم ، ويردها إلى ثلاثة أصول (أحكام وأخبار وتوحيد) كما

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن ٢٣٠/٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٥٩٢/١٠، فتح البارى ٦٧٨/٨ .

ذكر ابن حجر والسندي[1] رحمهما الله ـ عن العلماء ، «وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثا ، ثلثا منه أحكام ، وثلثا منه وعد ووعيد ، وثلثا منه أسماء وصفات ، وقد جمعت ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أحد الأثلاث ، وهو الأسماء والصفات»[2].

والمفارقات في روايات الحديث الواحد لا تتناقض ، ولاتتعارض بل تتجاور وتتحاور ـ كما قال بعض أهل العلم في استخراجه أسرار بلاغة أحاديث العزل[3] ـ لذا كانت رواية أبي سعيد الثانية واضعة يد العلماء على الخصائص التي بها عدلت السورة ثلث القرآن (أحد ـ الصمد) ومن دقائق البيان المعجز ورقائقه أنك لا ترى الجملتين الأوليين من السورة في آي من آيات التوحيد ونفي الشريك في الذكر الحكيم ، النبي ﷺ أغنانا عن مقارنة أسلوب التوحيد ونفي الشريك في السورة ، بأساليب ذلك المعنى في الذكر الحكيم كله .

والحق الأزهر أن حمل المثلية على تحصيل الثواب لا يكون إلا بالعمل بما تضمنته من الإخلاص والتوحيد ، وليس لائقا ببيان النبوة حمله على سبب الورود ترغيبا للقارئ ـ قتادة بن النعمان ـ وليس المراد ثلث حجمه المكتوب كما يتبادر من إطلاق (ثلث القرآن) فبقي الأعلى القول باشتمالها على معنى ثلث القرآن (التوحيد) كما تؤدي إليه الروايات عن النبي ﷺ وتراكيب السورة من قبل ، ولم يقل النبي كمثل هذا القول في

(١) فتح البارى ٦٧٨/٨، وحاشية السندى على صحيح البخارى ٢٣٠/٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٥٩٢/١٠ .
(٣) هو كتاب الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد فقه بيان النبوة منهجا وحركة ، مكتبة وهبة ١٤١٣هـ .

سورة أخرى ، ولا يدفع ذلك ما روي عنه ﷺ من أن سور (الكافرون ، والنصر ، والزلزلة ، وآية الكرسي) تعدل كل منها ربع القرآن ـ فالقول بذلك مع ما قيل في سورة الإخلاص يئول إلى إشكال في التقسيم بكل وجه ، على أن أهل العلم قد ضعفوا من حيث السند الأحاديث المروية في هذا المعنى في غيرة سورة الإخلاص[١].

وليس سائغا أن يقال : إن ما روي في السورة كان قبل نزول آية الكرسي ، والأعلى أنه « لا توجد سورة واحدة جامعة لما في سورة الإخلاص »[٢] وتسميتها بالإخلاص أجمع لمعانيها ، وتسميتها بالصمد بيان لما اختصت به ، وتسميتها بالأساس لاشتمالها على التوحيد إشارة إلى أن الجنسين الآخرين لمعاني القرآن تحت هذا الجنس فهو رأس الدين[٣] . فتعدد الأسماء ـ كما ترى ـ كشف عن عدة جوانب عن مقصود السورة ، وعن شيء من خصائصها ، وعن مساقها القرآني وموقعها من معاني القرآن الذي يجمع الدين ، قال البقاعي في تحرير مقصودها : ناظرا إلى تراكيبها مع أسمائها مع سياقها القرآني ـ « ومقصودها : بيان حقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالإنصاف بأقصى الكمال ، للدلالة على صحيح الاعتقاد ، للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال ، ونفي شوائب النقص والاحتلال المثمر لحسن الأقوال والأفعال وعلى ذلك دل اسمها الإخلاص الموجب للخلاص ... وهي أعظم مفيد للتوحيد في القرآن »[٤] فالمقصود هو الإخلاص في التوحيد ، والسبيل إلى البيان عنه إثبات الكمال ونفي شوائب النقص .

---

(١) راجع فتح البارى ٦٧٨/٨، ٦٧٩ .
(٢) التحرير والتنوير ٦٢١/٣٠ .
(٣) راجع الإتقان ٧٣/١، والتحرير والتنوير ٦٠٩/٣٠، ٦١٠ .
(٤) مصاعد النظر ٢٨٠/٣، وراجع النظم الفني في القرآن ، ص٣٧٢ .

ويحدد السيوطي ـ رحمه الله ـ مطلع السورة الكريمة ـ على قصرها بعد بيان المناسبة بين السورة وبين سورة (الكافرون) وكان هداه إلى هذه المناسبة ما ورد في صحيح السنة من قرن النبي ﷺ بينهما في سنن الفجر والطواف والضحى والمغرب ، وغير ذلك ـ وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن (الإخلاص) تقابل (الكافرون) يقول : «وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن معبوده (أحد) وأقام الدليل عليه بأنه (صمد لم يلد»[1] وكلمته تلك كاشفة أن المقصود يجمله قوله ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ وما وليه كالدليل له وهو يبين لنا ما جاء تابعا في الغرض الواحد .

وافتتح السورة بفعل الأمر ﴿ **قُلْ** ﴾ والخطاب بقل للتشريف في الذكر الحكيم كما قال الزركشي ـ رحمه الله ـ وهو تشريف لهذه الأمه وفيه الفوز بشرف المخاطبة من غير واسطة ، والأمر بهذا المعنى خرج إلى المجاز[2] ـ ونكتة الافتتاح به فيما ذكر ابن عاشور ـ العناية بما بعد فعل القول ، وشيء آخر هو ملاءمته سبب النزول إذ نزلت السورة جوابا للمشركين عن قولهم : انسب لنا ربك[3] .

وموقع الضمير في صدر السورة دون مرجع استحث نظر العلماء لاستخراج نكتته فجاءت إجابتهم ناظرة إلى مقصود السورة قال أبو السعود :

---

(١) تناسق الدرر ص١٦٠، ١٦١ .

(٢) راجع : البرهان ٢/٢٥١، ٢٥٢، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص٦٢ دكتور صباح عبيد دراز ، ط . أولى ١٤٣٦هـ .

(٣) راجع جامع البيان ٣٠/٢٢١، ٢٢٢، وأسباب النزول ، ص٣٤٥، ٣٤٦، والتحرير والتنوير ٣٠/٦١٢ .

« الضمير للشأن ومدار موضعه مع عدم سبق ذكره الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضر كل أحد . والسر في تصدير الجملة به ، التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها وجلالة حيزها مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ، ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن[1] .

وهي نكتة تتناسب مع أسلوب تقرير التوحيد الذي جرت السورة الكريمة على سننه وقد ذكروا أن الضمير كفاية عن اسم الله ـ ويكون حينئذ مبتدأ و﴿ ٱللَّهُ ﴾ خبره ، أو أنه كناية عن الشأن ويكون ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مبتدأ و ﴿ أَحَدٌ ﴾ خبره ، أو يكون التقدير بالنظر إلى سبب النزول : إن هذا الذي سألتم عنه هو الله أحد[2] والوجه الأول جار على تفسير صوفي ، والثالث مقترن بسبب النزول ، والوجه الثاني أظهرها وأبعدها من التكلف وتكون الجملة ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ واستخدام لفظ ﴿ أَحَدٌ ﴾ جار في مقصود السورة وكانت كلمة النبي ﷺ مشيرة إلى معجم مفردات مقصود السورة ، وأن المقصود يقتضي مفردات ، وتراكيب تنسقها على وجه يلائم مقصودها الأعظم .

زخرت كتب الأئمة باستخراج دقائق الفروق بين (أحد) و (واحد) بحيث لو أدير لسان العرب على وضع غيرها موضعها لم يكن ذلك مع أن (واحد) أشهر من (أحد) .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/٧٥١ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٨/٧٥٥ .

قال زين الدين الرازي في تعليل العدول عن الأشهر «يجوز أن يكون العدول عن الغالب هنا رعاية لمقابلة الصمد»[1] ولعل الأولى أن يقال : إن (الصمد) الذي لم يقع في غير السورة هو الذي جاء متلائما مع (أحد) .

وقد قالوا في الفرق بين (واحد وأحد) أقوالا ـ غير القول بترادفهما ـ تتلاءم مع المقصود .

أحدها : أنه لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى ، فلا يشركه فيها شيء وهو ألصق بالغرض .

ثانيها : أن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه . فهو أعم في إثبات الكمال .

ثالثها : أنك إذا قلت : فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد .

رابعها : أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي فيفيد العموم وهو مردود باستعمال القرآن : ﴿ **فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ** ﴾ (الكهف:١٩) وإنما يقبل هذا التفريق بأن المشتهر استعمال أحد في النفي وواحد في الإثبات .

خامسها : أن لفظ الله يدل على استجماع صفات الكمال (وهي الثبوتية كالعلم . . .) .

ولفظ (أحد) يدل على صفات الجلال (وهي الصفات السلبية كالقدم والبقاء) فيكون التركيب مثبتا للكمال بكل وجه .

سادسها : أن الأحد دال على أنه ـ تعالى ـ واحد من جميع الوجوه ،

---

(١) مسائل الرازي وأجوبتها ص٥٥٧ .

وأنه لا كثرة هناك أصلا لا كثرة معنوية ولا حسية ، وقد فهم المسلمون الأولون هذا فيما روي عن بلال حين التعذيب أنه كان يقول أحد أحد .

سابعا : أن الأحد هو الواحد الذي لا كثرة في ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة فليس بمادي ، ولا هو من أصول متعددة غير مادية .

ثامنا : أن (أحد) صفة مشبهه ، تفيد تمكن الوصف في موصوفها بأنه ذاتي له بخلاف (واحد) فإنه اسم فاعل لا يفيد التمكن وأوثر لأن المراد أنه منفرد بالإلهية ، فهو يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه ، وأن ليس كمثله شيء ويناسب معه ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

تاسعا : أن (أحدا) لا ينبني عليه العدد ابتداء ، فلا يقال أحد واثنان كما يقال واحد واثنان[1] وهو استعمال لغوي ونكتته انتفاء التعدد ، لأن الملفوظ به لا ينبني عليه عدد .

وقد جاء الخبر (أحد) منكرا تلاؤما مع المقصود قال الإمام محمد عبده «ونكر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله أنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواه»[2] والذي أرى أن التنكير إنما جاء جريا على الأسلوب السابق في ذكر الضمير دون مرجع تنزيلا للمنكر المتردد (الله أحد) وإيذانا بأن قليل التوكيد ـ على اعتبار اسمية الجملة توكيدا ـ يكفي في إزالة الشبهة ، أو تنزيلا للمنكر منزلة الجاهل ـ على أن اسمية الجملة لا تعد توكيدا إلا

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٧٥٥/٨، ٧٥٦، والجامع لأحكام القرآن ٧٥٨٩/١٠، وإرشاد العقل السليم ٧٥٢/٨، والفتوحات الإلهية ٦٠٤/٤، وتفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص١٣٤، في ظلال القرآن ٤٠٠٢/٦، والتحرير والتنوير ٦١٤/٣٠ وما بعدها .

(٢) جزء عم ص١٣٤ .

إذا اقترنت بمؤكد آخر ، والذي في هذا الأسلوب أن بناءه يومئ إلى اشتهارالخبر ذاته كالضمير السابق ، فلا مجال للقصر بتعريف الطرفين هاهنا فلا يصلح أن يقال (الله الأحد) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ وقد وقعت هذه الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال إيذانا بعلاقة التبعية التي جاءت عليها الجملة الثانية ، فهي كالنتيجة للأولى[1] والدليل لها . فكان الرابط المعنوي بينهما أقوى من الرابط اللفظي (العطف) وفي مجيئها بدون عاطف مزيه ـ إيهام استقلالها بذاتها ـ لتشكل عنصرا مستقلا في البيان عن المقصود ، وقد أحسن الشيخ الصاوي ـ رحمه الله ـ حين قال : « وهذه السورة الشريفة نفت أصول الكفر الثمانية . التركيب والعدد والنقص بمعنى الاحتياج والقلة بمعنى البساطة ، والعلة والمعلول ، والتشبيه والنظير ، أما الكثرة والعدد فانتفاؤهما بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والنقص والقلة بقوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ والعله والمعلول بقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ والشبيه والنظير بقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2] ولا ريب أن هذا التقسيم ناظر إلى إخلاص التوحيد لله الذي هو رأس الدين .

وقد جاء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، فوضع الظاهر موضع المضمر فلم يقل (هو الصمد) إيذانا باستقلال كل جملة[3] ونكتة أخرى ذكرها الفخر هو أن الظاهر ناسب التعريف في (الصمد) ولو أضمر لوجب التنكير في (الصمد) مع أن العربية لا تأبى ذلك ، وقد علل ـ رحمه

---

(١) انظر : البيضاوي ٥٨٢/٢، وإرشاد العقل السليم ٧٥٤/٨، ٧٥٥ .

(٢) حاشته الصاوي على الجلالين ٣٣٦/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٦١٧/٣٠ .

الله ـ لمجيء الأول منكرا والثاني معرفا بقوله : «الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس ، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم ، فإذا ما لا يكون منقسما لا يكون خاطرا ببال أكثر الخلق ، وأما الصمد فهو الذي يكون مصمودا إليه في الحوائج ، وهذا كان معلوما للعرب بل لأكثر الخلق . . . وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف»[1] .

ولما كانت الوحدانية لم تدع لغير الله جاءت الجملة الأولى معراة من التوكيد كما ذكرنا وكما كانت الصمدية تدعى ـ أحيانا وعلى وجه المبالغة ـ لغير الله ـ جاء الأسلوب بالقصر تلاؤما مع حال المخاطبين والقصر طريقه هاهنا تعريف الطرفين بأل «وهو قصر قلب لإبطال ما تعوده أهل الشرك في الجاهلية من دعائهم أصنامهم في حوائجهم والفزع إليها»[2] .

ولفظ (الصمد) من معجم مفردات المقصود ولم يقع في سورة أخرى ، ولأهل العلم في تأويله أقوال «إما أن يكون معناه : الذي يصمد إليه في الحاجات بشهادة الاشتقاق وإما أن يكون معناه : المستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وإما أن يكون معناه : المصمت الذي لا جوف له ، والمعنى الجامع لكل ذلك : المفتقر إليه كل ما عداه ولنظرهم لسياق السورة ردوا القول بأن معناه ما بعده ، وعلتهم في ذلك أن السياق يقتضي الاستقلال بأخبار كل جملة .

والصمد مشعر بأنه الذي ينتهي إليه الطلب ، دون واسطة ولا شفيع ،

---

(١) مفاتيح الغيب ٧٥٩/٨، والبرهان للكرماني ص٢٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٦١٨/٣٠، وراجع : جزء عم للإمام محمد عبده ص١٣٤ .

والفخر ـ رحمه الله ـ ذكر وجوها ترجع إلى الصفات السلبية وأخرى إلى الصفات الإضافية ، وذكر أن الأولى الحمل على الكل»[1] وكل هذه المعاني جارية في المقصود الأعظم للسورة (إخلاص التوحيد بإثبات الكمال) .

وقد جاء قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ معرى من العاطف إيذانا باستقلال الجملة بالإخبار ، وإيذانا بتبعية معناها للمعنى الأصلي للسورة بقوة الاتصال المعنوي بينها وبين ما قبلها بما يسمى كمال الاتصال .

والملحوظ في هذا التركيب أنه نفى الولد عن الله بطريق فارق الطرق التي جرت في القرآن كله ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ . وما أشبهه ونكتته أنه جاء كذلك ليدخل نفي الصاحبة ضمنا قال جار الله (لم يلد ـ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبته فيتوالدا ، وقد دل على هذا المعنى بقوله : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ لم يولد وصف بالقدم والأولية ، وقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ نفي للشبه والمجانسة[2] وهذا التركيب يشمل كل تراكيب القرآن في هذا المعنى وزيادة ، وقد عطف عليها قوله : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وهو «بمنزلة الاحتراس سدا لتجويز أن يكون له والد . . . وإنما قدم نفي الولد ، لأنه أهم إذ قد نسب أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى ، ولم ينسبوا إلى الله والدا . . . فلما أبطلت الجملة الأولى إلهية غير الله بالأصالة ، وأبطلت الجملة الثانية إلهية غير الله بالاستحقاق

(١) راجع : جامع البيان ٢٢٣/٣٠، والكشاف ٢٩٨/٤، ومفاتيح الغيب ٨٥٧/٨، ٨٥٨، والجامع لأحكام القرآن ٧٥٩٠/١٠، والفتوحات الإلهية ٦٠٥/٤، وتفسير جزء عم ص١٣٤، وفي ظلال القرآن ٤٠٠٤/٦ ، والتحرير والتنوير ٦١٧/٣٠ .
(٢) الكشاف ٢٩٨/٤، ٢٩٩ .

(هكذا يقول ابن عاشور مبينا أغراض الجمل ونسق تسلسلها) أبطلت هذه الجملة إلهية غير الله بالفرعية والتولد بطريق الكناية»[1] .

وقد ذكر الفخر ـ رحمه الله ـ سؤالاً مؤداه لم قال : هاهنا ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾؟ والجواب : أن الولد يكون على وجهين أحدهما : أن يتولد منه مثله ، وهذا هو الولد الحقيقي ، والثاني ألا يكون متولدا منه ولكنه يتخذه ولدا . . . فقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ فيه إشارة إلى نفي الولد في الحقيقة وقوله : ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ إشارة إلى نفي القسم الثاني[2] .

قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ذكر ابن عاشور أن الواو اعتراضية وهي واو الحال ، وأن هذه الجملة «في معنى التذييل للحال التي قبلها لأنها أعم من مضمونها لأن تلك الصفات المتقدمة صريحها ومكنيها وضمنيها لا يشبهها فيها غيره[3] وأصل هذا التركيب ولم يكن كفوا له أحد ، ومرجع ذلك إلى أنهم يؤخرون الظرف الذي هو لغو غير مستقر ، ولا يقدمونه بل قال سيبويه ، وأهل الجفاء من العرب يقولون ولم يكن كفوا له أحد ، كأنهم أخروها حيث كانت مستقرة[4] مع أنه هو السائغ الشائع ، إلا أنه وقع مقدما في أفصح كلام تناسبا مع مقصود السورة وغرضها كما قال جار الله مجيبا عن هذا السؤال (قلت : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري ـ سبحانه ـ وهـذا المعنى مصبه

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦١٩ .
(٢) انظر : مفاتيح الغيب ٨/٧٦٠، ٧٦١ .
(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٦١٩ .
(٤) الكتاب لسيبويه ١/٥٥، ٥٦ تحقيق عبد السلام هارون .

ومركزه هو وهذا الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه)[1].

وقد فصل الإمام محمد عبده هذا الوجه وعلل للتقديم بأن أشد الاهتمام (إنما هو بتنزيهه فقدم ضميره مع الجار في حيز الكون المنفي ، ثم قدم المنفي نفسه وهو الكفؤ ، لأن العناية موجهة إلى نفيه ، وآخر من سلبت عنه المكافأة لأنه لم يؤت به في الكلام إلا لقصد تعميم النفي فقط ، وإلا فقد كان يكفي أن يقال : وليس له كفؤ)[2] .

« واحد هنا بمعنى إنسان أو موجود ، وهو من الأسماء النكرات اللازمة للوقوع في حيز النفي ، وحصل بهذا جناس تام مع قوله : ﴿ **قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[3] .

والجملة الأخيرة يشبه أن تكون ردا على الأولى من رد المقطع على المطلع والجناس الذي في (أحد) كأنه معلم على هذا ، ويشبه رد العجز على الصدر في الجملة الواحدة فهو أحد لا يكافئه أحد ، وصمد لا يشبهه صمد ، وقد ظهر أن دقائق فروق التراكيب وأحوال الجمل جاءت على مقتضى المقصود الذي يجمله المطلع والسورة على قصرها جمعت من الخصائص الأسلوبية في موضوعها ما لم يقع في نفس الموضوع في سورة أخرى . وما أجمل ما ألمع إليه الفخر ـ رحمه الله ـ من المناسبة بينها وبين سورة الكوثر فيما يقول «أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا

---

(١) الكشاف ٢٩٨/٤، ومفاتيح الغيب ٧٦٠/٨، والانتصاف ٢٩٩/٤، وأبو السعود ٧٥٩/٨ .

(٢) جزء عم ص١٣٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٦١٩/٣ .

إنه أبتر ، ولا ولد له ، وهاهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولدا ، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب وجود الولد عيب في حق الله ـ تعالى ـ فلهذا السبب قال هاهنا (قل) حتى تكون ذابا عني ، وفي سورة ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾ أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذابا عنك)[1].

وقد بين ـ رحمه الله ـ أن كلية سورة الكوثر قائمة على رد مطعنهم (الأبتر) وأن سورة الإخلاص تتقابل معها ، وما أجمل ما قال جار الله في السورة «والمعنى أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك ، ومعطي ذلك كله أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان ، إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم[2] وهو من مؤدى تراكيب السورة الكريمة ـ وقد أفرد ـ رحمه الله ـ للسورة الكريمة (الكوثر) رسالة أجمل فيها وجوه الإعجاز ، كما ذكر الفخر ـ رحمه الله ـ أرجع ذلك إلى دلالات التوكيد ، وما في السورة من تعظيم الرب بضمير الجمع ، ومجيء الكوثر دون وصف إيذانا باتساع التأول ، وما في تعريف الكوثر من الأسرار ، وما في اللام في (لربك) ، من التعريض بين (العاص) وأشباهه وإخلاص العبادة لوجهه الكريم[3] وإنما وقع هذا التقابل مع الفصل بين السورتين بسور أخرى لها اعتلاق بمقصود السورتين ـ إشارة إلى أن القرآن كله سياق واحد على ترتيب بديع بين سوره وآياته ، ومفردات كل آية في موقعها من آيتها وموقع آيتها من سياقها في السورة ، وموقع السورة من سياقها في الذكر الحكيم كله .

---

(١) مفاتيح الغيب ٨/٨٦١ .

(٢) الكشاف ٤/٢٩١ .

(٣) راجع نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازى ص٢٧١ وما بعدها تحقيق : أحمد السقا ، المكتب الثقافى ، ١٩٨٩م .

ثانيا : سورة الفلق :

أخرج أصحاب السنن الثلاثة (أحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبان) من حديث عقبة بن عامر قال : وقال لي رسول الله ﷺ قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، تعوذ بهن ، فإنه لم يتعوذ بمثلهن اقرأ المعوذات دبر كل صلاة فذكرهن»[(١)] . وقد دخلت ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ ضمن المعوذات على التغليب ، وقد أبان حديث النبي ﷺ عن سياقها القرآني ، وما أحسن ما قال الشيخ الصعيدى في هذا المقام في سورة الفلق . ويقصد من هذه السورة تخصيص الله بالاستعاذة من شر الخلق ، وهذا يدخل فيما سيقت له سورة الإخلاص ، من إخلاص الدين لله ـ تعالى ـ وبهذا يدخل سياق هذه السورة في سياقها ، ويكون ذكرها بعدها لهذه المناسبة[(٢)] .

كأن المعوذتين جاءتا تابعتين لسورة الإخلاص ، بل كأنهما نتيجتا إخلاص الدين لله ـ تعالى ـ وعلامتا التصديق بهذا الإخلاص وقد نزلتا مَعًا كَمَا في الدلائل للبيهقي[(٣)] واشتركتا في التسمية والافتتاح ، بل كأنهما نتيجتا التصديق بمقصود الكتاب كله ، بعد موقعهما من سورة رأس الدين (إخلاص التوحيد) فيما يقول ابن الزبير ـ رحمه الله ـ (ولما كمل مقصود الكتاب واتضح عظيم رحمة الله به ، لمن تدبر آياته وأناب ، كان مظنة الاستعاذة واللجوء من شر حاسد ، وكيد الأعداء ، فختم بالمعوذتين من

---

(١) فتح البارى ٨/٦٨٠ .

(٢) النظم الفني في القرآن ص٣٧٣ .

(٣) انظر : تناسق الدرر ص١٦٢ .

شر ما خلق وذرأ وشر التغليق[1] تلك مساحة نظر الأئمة لموقع السورة في سياق القرآن كله ، وقد تكلم ابن الزبير ـ رحمه الله ـ على اتصالها بما بعدها ، وعلة تقديمها عليها بما يكشف عن دقائق تراكيب السورتين .

يقول : ـ رحمه الله ـ «وجه تأخرها عن شقيقتها عموم الأولى ، وخصوص الثانية . ألا ترى عموم قوله ـ تعالى ـ من شر ما خلق ، وإبهام ما ، وتنكير غاسق وحاسد ، والعهد فيما استعيذ من شره في سورة الناس ، وتعريفه ونعته بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه وأوفى بالمقصود[2] .

كأن تراكيب السورتين والمفارقات التي وقعت في كل منهما أشارت عند الرجل على دقة الموقع ، وذلك باب في البحث البلاغي لا يتلطف إليه إلا العارفون ، وما من ريب في أن الذي جره إلى هذا التنظير بين السورتين هو تقارب المقصود منهما فكلاهما ـ فيما يظهر ـ يتظاهر على الاعتصام بالواحد الحق ، ويفترقان في البيان عن المعتصم منه ، ولكل من السورتين ـ على قصرهما ـ معجمه اللغوي وسمته التركيبي ، كما تسوق إليه مقالات الأئمة كما سنحاول بيان شيء منه .

يقول البقاعي ـ رحمه الله في مقصود الفلق ـ «ومقصودها : الاعتصام من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن ـ واسمها ظاهر الدلالة[3] والذي أبصره في كلمته هذه أن مطلع هذه السورة هو قوله تعالى : ﴿ **قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ** ﴾ وليس من هم هذا البحث الكشف عن العلاقة بين هذه الآية وآيات السورة من حيث النحو فذلك أمر ظاهر في أن بقية السورة

(١،٢) البرهان لابن الزبير ، ص٢٤٧ .

(٣) مصاعد النظر ٢٩٨/٣ .

تتعلق ـ إعرابا ـ بالفعل ﴿ أَعُوذُ ﴾ في مطلع السورة الكريمة ، وهذه علاقة لفظية ظاهرة ، ولعلها تشير إلى قوة العلاقة بين مطلع السور ومقصدها على هذا الحد من الظهور في السور الطوال والمئين وغيرها كما حاولنا بيانه ـ بفضل منه تعالى ـ ولو كان للإعراب دخل في تقسيم آي السورة لكانت هذه السورة آية واحدة ، وكأن تقسيم الآي إشارة إلى استخراج دواعي هذا التقسيم ، وكأني به يستحث النظر إلى استكشاف أنساب المعاني بين هذه الآيات .

وقد مضى الحديث عن فعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾ في سورة الإخلاص . وقوله : ﴿ أَعُوذُ ﴾ بِرَبِّ ولا تظهر ـ عندنا ـ مزية السورة بالحديث فيه ، وإنما تظهر بمثل الحديث عن سر إضافة الربوبية إلى هذا اللفظ ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ بما يدل عليه ، ويحمل في أحشائه من طاقات اللغة ، وقد ذكر باسم الفاعل في موضعين من الذكر الحكيم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ (الأنعام:٩٥) وبعده ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ (الأنعام:٩٦) وبالفعل في موضع واحد ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء:٦٣) وهو في مدلوله العام يعني : شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض[1] وذلك المدلول اقتضى تأويله في موقعه من هذه السورة بعدة تأويلات تتكامل ـ ولا يرجح بعضها بعضا ، وهي في هذا التعدد تنظر إلى آيات السورة ، ولو جيء بلفظ غيره كمثل ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ في هذا الموقع لانقطعت صلة المطلع بما بعده أو أعوذ برب العباد ، أو برب الجبال ، أو برب الجن والإنس ، أو أعوذ بالجبار أو القهار ـ أو ما شئت من أسماء الواحد وصفاته ، وأسماء الموجودات وصفاتها ، لانفض اعتلاق المطلع بما بعده كما مضى وقد ذخرت كتب الأئمة باستخراج نكتة هذه الإضافة ـ ناظرة إلى آيات السورة ،

(١) المفردات (ف ل ق) ص٣٨٥ .

فكان للفلق عندهم في هذا الموقع عدة معان : الصبح ـ فلق النهار ـ الليل إذا أظلم ـ النهار إذا دخل في الليل ـ غروب الشمس[1] وذلك كله راجع إلى وقت الفلق فهو يجمع بين الظلمة والنور ، فهو نهاية أولهما وبداية ثانيهما يستأنس لذلك بقوله ـ سبحانه ـ ﴿ **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ** ﴾ (البقرة:١٨٧) وهو وقت الفلق المؤذن بانفراج الظلمة .

ولما كانت (حقيقة الفلق الانشقاق من باطن شيء)[2] كان لهذه الدلالة أيضا ـ خط في آيات السورة ، فلم يستقم استبعادها ، وما أثقب نظر الأئمة حين قالوا « إن الفلق هو الموجود الممكن كله ، وربه هو خالقه الذي شق ظلمة العدم عنه »[3] بإزاء ما مضى من قول البقاعي في تحديد مقصود السورة ، حتى ما كان ضعيفا من دلالات الفلق لا يغادره المعنى اللغوي لكلمة (أفلق) فقد قيل في (الفلق) بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره[4] وكأن قوله تعالى : ﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ جاء تفسيرا لمعنى الفلق ، فعهدنا بالأئمة الحيطة والحذر من القول في الكتاب دون سند أو دليل ، وربما أن هذا التفسير هو الذي حمل الأئمة على وضع كل موجود من عدم تحت هذا اللفظ .

وقد اختلفوا في سر الإضافة هذه تبعا لاختلافهم في تأويل (الفلق) وهم في معظم تعليلاتهم ينظرون إلى آيات السورة ، فالذين قالوا : إن معناه الصبح رأوا في هذا التعوذ أسرارا (١) أنه القادر على إزالة هذه الظلمات وهم في هذا الوجه ينظرون إلى كل آيات السورة .

---

(١) راجع جامع البيان ٢٢٦/٣٠، والجامع لأحكام القرآن ٧٥٩٩/١٠ .
(٢) راجع مفاتيح الغيب ٧٦٦/٨، ٧٦٧ .
(٣) راجع : التحرير والتنوير ٦٢٦/٣٠ .
(٤) انظر مسائل الرازي ص٥٥٨ .

(٢) إن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج ، وهم ينظرون إلى تكرار ﴿ وَمِن شَرِّ ﴾ مضافا إلى فاعل مغاير في كل آية أن الصبح كالبشير ، ثم عللوا تعليلات أخرى ترجع إلى فضل هذا الوقت تتناسب وسياق السورة في موضعها من المصحف الشريف ، فهو وقت دعاء المضطرين ووقت الاستغفار والتضرع كأن موقع السورة يترجم أن هذا الوقت لا يغتنمه إلا من أخلص التوحيد وصدق في الاستعاذة .

والذين قالوا : إن الفلق معناه كل ما يفلقه الله في الأرض عن النبات ، نظروا أيضا لكل آيات السورة ، وما فيها من الظلمات الظاهرة ، ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ والباطنة في الآيتين التاليتين ، ووجه هذا المعنى عندهم أنه يؤول إلى أن يكون المعنى : قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومكون كل المحدثات والمبدعات ، فيكون التعظيم فيه أعظم ، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى ، وفي التعبير بالفلق إلاحة إلى قدرة الله سبحانه ـ وذلك ألصق بغرض السورة الذي مضى بيانه ، وذلك لأن التصوير والتكوين في الظلمة أصعب منه في النور ، فكأنه يقول : أنا الذي أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار وظهور الأضواء ، ومثل ذلك مما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة[١] . ولا ريب أن في وصف الله بهذه الصفة (رب الفلق) تمهيدا للإجابة كما قال ابن عاشور[٢] ، وكما وقع قوله : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ كالتفسير للفلق ، وقعت آيات السورة كالشرح لهذه المخلوقات ، كما تؤدي إليه مقالات الأئمة ، لأنهم يذكرون أن الاستعاذة في السورة من شر ثلاثة أشياء فهدانا كلامهم إلى هذا القول والعطف في هذا الموضع يثير بتغايره على قوة شر كل مستعاذ منه .

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٧٧٦/٨، ٧٦٧ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٦٢٦/٣٠ .

وقد وقعت الاستعاذة من شر هذه الأشياء الثلاثة خصوصا تعظيما لشرها أو لخفاء شرها فهو يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به[1] وهذه الشرور ثلاثة أنواع عند ابن عاشور «أحدها : وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل ، والثاني : صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير ، والثالث : صنف من الناس ذو خلق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به»[2] .

ولما كان الوقت الذي يغلب فيه وقوع الشر أكبر معين على الشر عني القرآن هاهنا ببيانه ـ ولا ريب أن مفردات مقصود السورة من باب واحد فغاسق توشك أن تكون من مجرد دلالة الفلق ، لأنهم رجحوا[3] أن يكون المراد بالغاسق الليل ، فهو وصف له إذا اشتدت ظلمته ، حتى ما قيل من أنه القمر أو الثريا أو الشمس يئول إلى الليل بالقيد الذي وضعه القرآن ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي إذا غاب ، فالاستعاذة منوطة بوقت الظلمة ، كأن غياب هذه الأشياء يؤدي إلى ظلمة وقت غلبة الشر ، ويبدو أن الذين قالوا : إن الفلق بيت في جهنم اصطحبوا هذا المعنى في تفسير الغاسق ، فجوزوا أن يكون المراد بالغاسق (الأسود من الحيات) ولاحظ أنهم بقولهم الأسود يدفعون ما يعترض عليهم به من هذا القيد ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ ـ المهم أنك ترى أعيان الأئمة يصطحبون نور المطلع في آيات السورة كما نقلنا من كلامهم .

وتنكير (غاسق) و (حاسد) وتعريف (النفاثات) كان مجالا لنظر الأئمة في استخراج نكتة هذه المفارقة ، فقد وقع التنكير إفادة للتبعيض فيما

---

(١) انظر : مسائل الرازي ص٥٥٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٢٧/٣٠ .

(٣) راجع : في معنى (غاسق) الكشاف ٣٠١/٤، ومفاتيح الغيب ٧٦٩/٨، ٧٧٠، والجامع لأحكام القرآن ٧٦٠١/١٠، والتحرير والتنوير ٦٢٧/٣٠ .

يتخلف منه وقوع الضرر ، فليس لكل غاسق شر ، وليس لكل حاسد شر بل والتنكير هاهنا يخرج الحسد المحمود ، والتعريف في النفاثات ، إشارة للعهد ، فكأنه تنكير ، لأن من قال التعريف في النفاثات للعهد نظرا إلى سبب النزول ، فالنفاثات كما في سبب النزول بنات لبيد أو أخواته[1] والأولى أن تكون اللام للجنس في النفاثات ، لاتساق ذلك على ما تجري عليه السورة من التعميم من أولها في دلالة (الفلق) وأن يكون التنكير في (غاسق) ، (حاسد) للتعميم أيضا لورودهما في مقام الدعاء[2] وفي إضافة الشر إلى (غاسق) مجاز عقلي علاقته الزمانية ، وفي هذا التجوز إبراز لدلالة عنصر الزمان في وقوع الشر ، وفي هذا القيد ﴿ **إِذَا وَقَبَ** ﴾ إبراز لقوة هذا الغسق ، فوقب «بمعنى دخل دخولا لم يترك شيئا إلا مر به[3] إذا كان غاسق هو (الليل) وإذا كان بمعنى الحية فمعنى (وقب) (لدغ) يقال : «وقب نابها إذا دخل في اللديغ»[4] وفيه أيضا دلالة على استحكام شرها ، وخفائه عن الأعين .

ومن بديع المناسبة في قوله : «ومن شر النفاثات في العقد» أنه عبر بقوله النفاثات بدل الساحرات أو غيرها ، ليدل بصيغة المبالغة على الحدث الذي يبالغ فيه الساحر في كتمان فعله واستحكام شره ، ولا ريب أنه يتناسب ومعنى (الفلق) وتقوى هذه العلاقة بالعطف على قوله : ﴿ **وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** ﴾ قال ابن عاشور «وعطف شر النفاثات في العقد على

---

(١) راجع : أسباب النزول ص٣٤٦ وما بعدها ، ومسائل الرازي ص٥٥٨، والصاوي على الجلالين ٣٦٧/٤، والفتوحات الإلهية ٦٠٨/٤ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٦٢٧/٣٠ .

(٣) جزء عم ص١٣٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠١/١٠ .

شر الليل لأن الليل وقت يتحقق فيه السحرة إجراء شعوذتهم لئلا يطلع عليهم أحد»[1] «والنفاثة من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة ، ويستعمل كذلك للذكر والأنثى»[2] .

وفي هذا القيد أيضا (في العقد) تناسب مع دلالة الفلق ، إذ الصبح كالبشير كما قالوا ولا ريب أن النفاثات في العقد مما خلق الله ، فكأن كل ما في السورة ، وقع بدل بعض من قوله ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ وقد آذن هذا الجناس الناقص بين (فلق ـ وخلق) بتناسب بين الوصف المستعاذ به (الفلق) وبين ما استعيذ منه في بقية السورة وظاهر أن لغة السورة تدل على ذلك دلالة بينة ، كما مضى بيانه .

وجاء قوله سبحانه : «﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ معطوفا على ما قبله وما قبله معطوف على ما قبله ، وهو بدوره معطوف على ما قبله ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ والجميع كأنه شرح لهذه الكلمة وتفصيل لها التي تناسبت مع (الفلق) وهذه العلاقات اللفظية الظاهرة جاءت صورة للعلاقات المعنوية المستكنة في مفردات السورة وتراكيبها ، يبرز ابن عاشور هذه المناسبة فيقول : «عطف شر الحاسد على شر الساحر المعطوف على شر الليل لمناسبة بينه وبين المعطفوف عليه مباشرة ، وبينه وبين المعطوف عليه بواسطته فإنه مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاه لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها ، ولأن ثوران وجدان الحسد يكثر في وقت الليل ، لأن الليل وقت الخلوة وخطور الخواطر النفسية والتفكر في الأحوال الخاصة بالحاسد وبالمحسود»[3].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٢٨ .

(٢) جزء عم للإمام محمد عبده ص١٣٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٦٢٩ .

وأمر هذا القيد أمر عجيب﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾كيف وقد وصف بأنه﴿ حَاسِدٍ ﴾ يؤذن هذا القيد بتصنيف الحاسدين ، وليس ظاهرا أن يكون الحسد المحمود ضمن هذا التصنيف فهو خارج بقرينة مقالية في بيان النبوة ، والذي يظهر أن الحسد نوعان :

حسد لا يتعدى أطوار النفس ، وحسد آخر يدفعه لهيب الغيظ إلى الإضرار بالمحسود ، ولا ريب أن الحاسد الذي يوقع الإضرار بالمحسود بتحين الوقت الساتر وموقعه من السورة ببناء لفته على ما عرفت ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ والذي يعلم كلاً ويكشف خير كل هو (رب الفلق) .

وربما يكون في هذا القيد ملمح إلى ضآلة ضرر الحاسد الأول الذي لا يتعدى حسده أطوار نفسه ، وإشارة إلى ندرة أثره ، المهم أن هذا القيد كشف تنويع الحاسدين وما أحسن ما قال ابن عاشور : «وتقييد الاستعاذة من شره بوقت ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه ، فتتحرك له الحيل والنوايا ، لإلحاق الضرر به ، والمراد من الحسد في قوله : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ حسد خاص وهو البالغ أشد حقيقته فلا إشكال في تقييد الحاسد بـ (حسد) »[1] لأنه «قد يتغلب الحسد صبر الحاسد وأناته ، فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأسا»[2] وذلك ظاهر فيما وقع بين ابني آدم ، كأن قصة قابيل وهابيل في سورة العقود تفسر هذا القيد ، لكنها وقعت في سورة العقود ، تناسبا مع مقصودها هناك بقرينة ما قدمت به القصة ، من أنها كانت مثالا لخلف العهد ونقضه .

* * *

(١،٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٠ .

ثالثا : سورة الناس

هذه السورة الكريمة ابنة سورة الفلق ، وجزء منها ، فإن الناس ضمن ما خلق الله وقد كان في أمها كفاية في التعوذ ، وقد أغرت بموقعها هذا . . علماء الأمة باستبصار أسباب موقعها وأسراره ، ولها قرينة أخرى ، هي أنها خاتمة الكتاب العزيز ، فكان لأهل البصيرة دقائق من البيان نورت بعضا من أسرار هذا الموقع .

أرجو أن تكون على ذكر من أن ابن الزبير قد ذكر أن وجه تأخرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية ، وأن شيوع التنكير ناسب التعميم في أسلوب سورة الفلق ، والتعريف ناسب التخصيص في سورة الناس[1] وكان ذلك واضحا في المطلق من دلالة (الفلق) ودلالة (الناس) وكان تشابه الفاتحتين إيذانا بتشابه المقصودين والتغاير في الإضافة (رب الفلق) (رب الناس) هو الآخر إيذان بتفرد كل مساق بخصائصه .

يقول البقاعي ـ رحمه الله ـ ومقصودها : الاعتصام بالإله من شر الخلق الباطن واسمها دال على ذلك ، لأن الإنسان مطبوع على الشر وأكثر شره بالمكر والخداع ، وأحسن من هذا أنها للاستعاذه من الشر الباطن المأنوس به المشروح إليه ، فإن الوسوسة لا تكون إلى بما يشتهى . . . ومقصود هذه السورة معادل لمقصود الفاتحة الذي هو المراقبة ، فقد اتصل الآخر بالأول اتصال العلة بالمعلول والدليل بالمدلول والمثل بالممثول والله المسئول في تيسير السول وتحقيق المأمول»[2] رحم الله الشيخ البقاعي

(١) راجع البرهان ص٢٤٧ ، وسورة الفلق في هذا البحث وراجع النظم الفنى ص٣٧٤ .

(٢) مصاعد النظر ٣٠٩/٣، ٣١٠، يراجع أيضا ٢٠٩/١، ٢١٠، وفصل فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم من هذا البحث .

ـ القرآن الكريم مثل صفحة معروضة في عقله فالفاتحة براعة استهلال للذكر الحكيم كله ـ والمعوذة هذه خاتمة الذكر الحكيم كله ، ذلك نظر الأئمة إلى درس براعة الاستهلال ، وما أدى إليه قول نبي الأمة ﷺ بقوله الفاتحة أم الكتاب مؤسسا لهذا الدرس وخطره ، وكان أعيان الأئمة على بصيرة من كلمته ﷺ على حد ما بيناه في هذا البحث . فالله أعلم .

وقد كانت هذه الإضافة ﴿ **بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ﴾ مشيرة نظر الأئمة فاستخرجوا عللها ناظرين إلى آيات السورة ، معللين التخصيص بإضافة الربوبية إلى الناس بقولهم . . . « وإنما ذكر أنه رب الناس ، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين :

أحدهما : لأن الناس معظمون فأعلم بذكرهم أنه رب لهم ـ وإن عظموا (وأرجوا أن يكون كلامهم هذا ناظرا على قوله ﴿ **مَلِكِ ٱلنَّاسِ** ﴾ .

الثاني : لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم »[1] .

الثالث : أنه خصهم بالذكر تشريفا لهم وتفضيلا وهو ناظر إلى تكرار الناس كأنه عرف ذاته بكونه ربا للناس .

الرابع : أنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع ذلك أنه ربهم ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم ، وفي ذلك نظر إلى آيات السورة مع هذه الإضافة في المطلع ، والمطلع حينئذ هو قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ﴾ وهو بمثابة العلة وآيات السورة بمثابة المعلول وفي هذا النسق تلاؤم مع الاستعاذة .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠٥/١٠، والفتوحات الإلهية ٦١٠/٤ .

الخامس : أن الاستعانة وقعت من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي هو إلههم»[1].

وأمر الاعتلاق اللفظي بين مطلع السورة وآياتها أمر ظاهر فالآيتان ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ عطف بيان لقوله : رب الناس أو بدل ، و(من شر) متعلق بالفعل ﴿ أَعُوذُ ﴾ في المطلع (والذي يوسوس) صفة للوسواس الخناس ، وهكذا ولا ريب أن تناسب آيات السورة في معانيها أمر ظاهر باهر أيضا فمعانيها جارية في سبيلين سبيل البيان عن المستعاذ به ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو تحت قوله ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ وسبيل البيان عن المستعاذ منه ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ وقد اشتملت السورة الكريمة برقائق مفرداتها على السبيلين بتناسب ظاهر بينهما .

فقد أفاد قوله ﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾ أن أمرا بالاستعاذة قد وقع وهذا الفعل بذاته يقتضي أمرين مستعاذًا به ومستعاذًا منه ، كشفت إضافة الربوبية إلى الناس عن السبيلين والبناء بهذا النسق له دلالة رائعة «لأن الاستعاذه من شر يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيضلون ويضلون ، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس ، فناسب أن يستحضر المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ، ومن يلقى إليهم ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين»[2] .

وكانت أوصاف الألوهية في السورة مثارا لنظر الأئمة قال الإمام محمد عبده «وإنما خص هذه الصفات ـ صفات الألوهية ـ بالإضافة إلى الناس ـ مع أن الله رب كل شيء ، ومالك كل شيء ، وإله كل شيء ، لأن الناس

---

(١) مفاتيح الغيب ٧٧١/٨، والصاوي على الجلالين ٣٦٩/٤، ومسائل الرازي ، ص٥٥٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٣٢/٣٠ .

هم الذين وهموا في صفاته وضلوا فيها عن حقيقة معانيها»[1] فلا جرم قد جاء بالصفات التي تتناسب مع المستعاذ منه ليساق كل في سبيل المقصود الذي هو الاعتصام بالإله من شر الخلق ، وقد جاءت هذه الأوصاف على نسق يتناسب ومقصود السورة ، والإضافة في المطلع يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ «وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيبا مدرجا ، فإن الله خالقهم ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شئونهم ثم ذيل بيانا بوصف إلهيته لهم ، ليبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوبية بعضهم بعضا وحاكمية بعضهم في بعض»[2] .

ولذكر الصفة الثانية اتصال خاص بفرض السورة فإن أكبر معين للناس على الشر حاكميتهم للناس فأفاد هذا الوصف أنه ملك الملوك قال القرطبي : «وإنما قال : ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكا فذكر أنه ملكهم»[3] .

«وقد أخر الصفة الثالثة ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ لأنه قد يقال : ملك الناس وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان»[4] فهو ملك الملوك ومعبودها وفي ذلك النسق حث على الاستعاذة به وتوهين للمستعاذ منه .

وقد ذكروا أن عطف البيان اقتضى تكرير لفظ الناس الذي اقتضى مزيد شرف الناس لأنه سبحانه ـ كأنه عرف ذاته بكونه ربا للناس إلها للناس[5]

---

(١) جزء عم ص١٤١ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٣٢/٣٠، ٦٣٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠٥/١٠ .

(٤) الكشاف ٣٠٢/٤ .

(٥) الكشاف ٣٠٢/٤، ومفاتيح الغيب ٧٧١/٨، ٧٧٢، والصاوي على الجلالين ٣٦٩/٤ .

والذين ذكروا هذا جعلوا الإضافة في مطلع السورة للتشريف كما ذكرت ، لكن ما مقتضى عطف البيان ـ الذي هو وسيلة في أداء المعنى كاللفظ؟ وهل يستقيم أن يكون علة فىالتكرير؟ والحق الأزهر أن المقصود هو الذي اقتضى ورود الوسائل اللغوية ـ من الألفاظ والتراكيب على وجه يتظاهر على إبرازه ، فإن المقصود الاعتصام برب الناس من شر الناس فتشاكل السبيلين إلى البيان عن المقصود أدى إلى تشاكل الأسلوبين ولعل في قولهم إنه تكرير تسامحا ، فإن كل لفظ للناس في السورة له دلالته ، وإن كان الجميع يئول إلى توكيد المقصود إلى فإن التفصيل أولى .

ففى قوله : ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ إظهار في مقام الإضمار وقد وقع كما قال ابن عاشور ـ «لقصد تأكيد ربوبية الله تعالى . . . وملكه ، وإلهيته للناس كلهم»[1] ولا ريب أن ذلك يتلاءم ومقصود السورة أضمر ما أظهر ثم قال : أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم من شر . . . ثم انظر المعنى ، والإخلال بالمقصود من السورة .

أما ذكره في قوله : ﴿ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ «فهو إظهار لأجل بعد المعاد»[2] هل يستقيم أن نقول الذي يوسوس في الصدور من الجنة والناس؟

لا ريب أن ما جاء عليه الذكر الحكيم يتناسب مع ما تسير السورة على لاحبه من العناية بالمستعاذ منه والتي اقتضت أوصافا للمستعاذ به تتناسب معها أيضا «أما ذكره في قوله : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ فلأنه بيان لأحد صنفي الذي يوسوس في صدور الناس»[3] وهو متصل بالبيان عن الشق

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٥ .

(٣،٢) المرجع نفسه ٣٠/٦٣٦ .

الثاني (المستعاذ منه) فالاستعاذة من الوسواس الخناس وهو شر باطن «والوسواس يقع من الجن ويقع من الإنس ـ ووقوعه من الإنس أشد وأوقى ـ كما يبرزه الذكر الحكيم بتقديم الإنس على الجن في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ . . . ﴾ (الأنعام:١١٢) ويدل انتشار لفظ الناس هاهنا على ذلك دلالة ظاهرة كما يدل هذا التصنيف على أن ذكر الجنة جاء تبعا إذ يدخل مجازا تحت الوسواس لأن الوسوسة (الخطرة الرديئة) وأصله من الوسواس وهو (صوت الحلى والهمش الخفي) ويقال لهمس الصائد وسواس»[1] «وإطلاق (الوسواس) على معنييه ـ المجازي والحقيقي ـ يشمل الشياطين . . . ويشمل كل من يتكلم كلاما خفيا من الناس وهو أصحاب المكائد والمؤامرات»[2] ولا ريب أن البقاعي ـ رحمه الله ـ كان ينظر إلى هذه الألفاظ وهو يحدد مقصود السورة ـ ويظهر ذلك بمراجعة نصه فيما مضى .

والخناس «الشيطان الذي يخنس ـ أي ينقبض إذا ذكر الله تعالى»[3] . وبناؤه بصيغة المبالغة دال على كثرة خنسه ، وكذلك تتناسب مع الاعتصام بالإله من شره كما هو مقصود السورة ، وما تدل عليه خَنَس من الاختفاء والتولي فيه إغراء وحث على الاستعاذة وتناسب مع أوصاف الألوهية في السورة لأنه ربه ومالكه وإلهه فهو بالاستعاذه فار ومختف وكيده هالك .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ «وقع ليحدد مكان المستعاذ منه وموقعه وفي ذلك تناسب مع أوصاف الألوهية في السورة ،

---

(١) المفردات (وسوس) ص٥٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٣٣/٣٠ .

(٣) المفردات (خنس) ص١٥٩ .

وجار على توهين المستعاذ منه وترغيب المستعيذين وفيه (تقريب تصوير الوسوسة) كي يتقيها المرء إذا اعترته لخفائها وذلك بأن بين أن مكان إلقاء الوسوسة هو صدور الناس وبواطنهم»[1] ولولا هذه الدلالة وموقعها من غرض السورة لكان يمكن أن يقال : من شر الوسواس الخناس من الجنة والناس .

من ثراء هذا التركيب وعطائه أن قوله (يوسوس) يدل على الحقيقة والمجاز «فإطلاق فعل (يوسوس) على هذا العمل الشيطاني مجاز ، إذ ليس للشيطان كلام في باطن الإنسان . وأما إطلاقه على تسويل الإنسان لغيره عمل السوء فهو حقيقة»[2] والقرائن السياقية والمقالية في السورة قاضية بإرادة الحقيقة والمجاز معا ، فقوله ﴿ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ يعلي القول بالحقيقة في الفعل (يوسوس) وقوله ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ ﴾ يعلي القول بالمجاز في الفعل . والقرائن هي الفاصلة فيما اشتهر بين العلماء من منع القول بالحقيقة والمجاز للفظ الواحد في المساق الواحد والغرض الواحد أو إجازة وقوعه كما انتهى إليه بعض أهل العلم ـ وقد ذكر «أن الجمع بين الحقيقة والمجاز نهج عال من مناهج البيان القرآني ، وسنة من سنن الهدى البياني فيه»[3] .

(١،٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤ .

(٣) راجع : كتاب إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني صنعة الدكتور محمود توفيق فإنه كتاب جيد يعينك على فقه دلالات نصوص الكتاب وثرائها ، ويكشف لك تراث الأصوليين في تناول النصوص وهو باب سكت عنه البلاغيون سكوتا عقيما وما ذكرناه ، ص١٧٥، ١٧٦، ط . أولى مكتبة وهبة ١٤١٢هـ.

وهذا المراد يتناسب وإفادة التعريف في (الوسواس) فإنه يفيد إطلاقه جنس الوسواس كما يشير إليه التصنيف آخر السورة ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ .

ولما كان بيان النبوة قاضيا بأن الشيطان يوسوس على الحقيقة قال أهل العلم : «الخناس الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدرالإنسان ، فإذا غفل الإنسان وسوس له»[1] وكأن ثراء دلالة النص القرآني اشتملت على ما اختلف فيه أهل العلم من أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . أهو على الحقيقة أم على المجاز؟ وهم في هذا الاختلاف كانوا ينظرون ـ بلا ريب ـ إلى نصوص تدل على الحقيقة والمجاز فاستيقن كل بأدلة أعانته على قوله .

وكان تقديم الجنة على الناس في البيان مشيرا عند ابن عاشور في سياق التصنيف ـ إلى أن الوسواس «باعتبار إفادة حقيقته ومجازه إلى صنفين صنف من الجنة وهو أصله ، وصنف من الناس وما هو إلا تبع وولي للصنف الأول» وهو لا يعارض ما ذكرناه من أن مجيء الجنة على التبع في الأنعام يفيد أن وسوسة الإنس أشد كما تتظاهر عليه لغة السورة فهم «لا يصلون إلى إضرار الإنس إلا بالإغراء بهم بإنس آخرين فكأن الإنس تبع للجن من هذا الوجه ، وكأن الجن تبع للإنس من الوجه الذي ذكرناه فالله أعلم ويرجحه ما علل به لتقديم الإنس على الجن في سورة الأنعام بقوله : إنما قدم لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم»[2] والحق إن شاء الله أن التقديم دال على أن وقوع الإضرار للإنس من جهة الإنس أسرع وأشد من

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠٦/١٠ .
(٢) التحرير والتنوير ٦٣٥/٣٠ .

وقوعه من جهة الجن : لذا قال طائفة من أهل العلم ـ إن إيذاء الجن للإنس لا يتعدى الوسوسة .

هذا وقد ظهر أن مفردات السورة وأنساقها تتظاهر على المقصود تشترك الألفاظ بحظ والتراكيب بحظ ، وترتيب التراكيب بحظ ، والعلاقة بينها وبين المطلع بادية باهرة لفظا ومعنى . كما هي في كل سورة طوالها في ذلك كقصارها «وقد افتتح القرآن بحمده تعالى في سورة الفاتحة ، وختم بالاستعاذة به في هاتين السورتين والحمد يناسب الابتداء والاستعاذة تناسب الختام»[1] فسبحان من أنزله ـ وصلى الله على من بلغه آمين .

* * *

(١) النظم الفني في القرآن ص٣٧٤ .